

الفصل الحادي عشر

تغطية مظاهرة

تلقنا إعلانات التلفزيون فيما يبدو حكمة شائعة أن بخة واحدة من عطر معين، أو استخدام معجون أسنان معين كل يوم سوف يجلب الحب وراحة البال الدائمة. ونحن نشاهد الإعلانات ونعلم أن هذا هراء، ولكننا نشترى هذه الأشياء.

وفي معظم البرامج الترفيهية.. تكون الرسالة على هذا المستوى من الذكاء .. فعندما تواجهنا مشكلة خطيرة يقال لنا إن الحل واضح، ويتم ذلك خلال ساعة أو نصف ساعة؛ فيستطيع الإنسان أن يلجأ إلى الطلاق أو القتل مثلاً لحل المشكلة.

إن التلفزيون أداة ناقصة، لا تصلح للتفكير وللمداولات الصبورة المرهقة اللازمة لحل المشكلات الحقيقية، التي تواجه أناساً حقيقيين. ويقوم التلفزيون - كوسيلة درامية - بتجريد الحقيقة من الروتين والملل، ويقدم صورة للجاح تاجر، أو حلاً عاجلاً لعقدة، في حين أن القلب والفشل غالباً ما يكتنفان الناس في واقع حياتهم.

وفي قصة كتبها إدوين كيستر الصغير. Edwin Keister Jr. في دليل التلفزيون قال، فيها : في الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٨٢، عقد جورج ماكورميك، وهو ضابط في شرطة لوس أنجلوس، مقارنة بين عمله في الحقيقة، وعرض نموذجي للعسكر والحرامية، في التلفزيون، فقال: «أبها الأولاد إنكم تستطيعون إنجاز ما أعمله في عام كامل في ساعة واحدة. ويقول الناس: لماذا لا يستطيع النبليس الحقيقي أن يكون كذلك». إنهم لا يعرفون أن شخصاً ما هو الذي يكتب النص الذي يمثل، فيتحقق ما يروونه كأنه الواقع.

ونص ماكورميك يقول «في بعض الأحيان يمر يوم كامل دون أن أستدعى، وفي أيام أخرى لا تتوقف الاستدعاءات. ولقد عرف أحد زملائي السابقين مهمة رجل الشرطة أبلغ تعريف، حين قال «ساعات من السأم، تتخللها دقائق من الرعب الشديد».

ولا يتوقف قصور التلفزيون في نقل الحقيقة عند الإعلانات أو الأعمال الدرامية وحدهما. فهو يصيب أخبار التلفزيون أيضاً؛ حيث يكون توقع الناس للحقيقة أكبر مما يحدث بالفعل؛ فالحاجة إلى العرض المصور والإيجاز تحد من قدرة أخبار التلفزيون على تبسيط التعقيدات في قضايا معينة أو تناولها بعمق، وليس من الضروري أن تؤدي البرامج الأطول إلى عمق أكبر. والاتجاه السائد في المحطات المحلية - حيث يتوفر الآن مزيد من الوقت - هو استخدامه لبث مزيد من الأخبار ومزيد من الترفيه؛ بدلاً من زيادة الإيضاح والتفسير وعرض خلفيات الأخبار.

وإنه لمن دواعي السخرية أن المواطنين يتجهون في الحصول على المعلومات إلى وسيلة، تتعامل مع الصور المبسطة، في وقت يزداد فيه تعقد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتزداد الصعوبة في حلها. ولو أمكن رصد الصواب والخطأ، في الواقع الحي خارج إطار التلفزيون.. فإن كيفية التصرف فيه تنسم بالتخبط والصعوبة، ونحن في الصراع نتوجه إلى الحق، وما يترتب على ذلك من نضال. ويميل التلفزيون - في إيجازه - إلى تبسيط القضايا المعقدة، ذات الأوجه المتعددة فتصبح وكأنها صراع بين أولاد طبيين وآخرين أشرار، وبهذا يهيئون جواً يكون فيه المشاهدون، غير راغبين في الاعتراف بالحلول الوسط اللازمة للعدالة والسلام الاجتماعي أو قبولها.

ويوضح هذه النقطة، اللجوء المستمر إلى المظاهرات كملتقى عام في المشكلات المعقدة، ويقع التلفزيون تحت إغراء هذه الأحداث؛ إذ تجمع بين الدراما والتسلية. والمظاهرة المنتظمة هي حدث معد تماماً كالمؤتمر الصحفي؛ فكلاهما يستهدف جذب انتباه وسائل الإعلام.

والجاذبية في المظاهرات أمر واضح؛ فهي مثيرة من ناحية الصورة. كتل من البشر ترفع قبضات أيديها تصيح وتغنى وتشكل الحدث الدرامي وألوانه. هناك عاطفة وانفعال؛ فالمظاهرة تنتج للغاضبين والمحبتين إطلاق مشاعرهم المكبوتة، ثم إن المظاهرات تبسط الأمور، وتريح منتجي الأخبار من صداد الكلمات في المجالس وقاعات الاستجواب.

والذين ينظمون المظاهرات لا تخفى عليهم جاذبيتها للمؤسسات الإخبارية، وسوف يتأكد المنظمون من أن المحطات المحلية تطعم مكان وموعد المظاهرة. وليس من الضروري أن تكون المظاهرة جادة، أو تمثل قطاعاً واسعاً من الرأي العام؛ حتى تجذب التغطية الإخبارية فمادامت مفعمة بالحياة وذات وجه مسرحي، ومثيرة، فللمتظاهرين أن يطمئنوا إلى وجود الكاميرا.

وتنظم مظاهرات كثيرة، على أساس أنها الوسيلة الوحيدة للفت اهتمام وسائل الإعلام.

وحتى مع الاعتراف بأن مشكلاتهم وتناقضاتها يمكن أن تُشرَح على النحو الأفضل في اللقاءات الهادئة الواعية، إلا أن المنظمين يتجهون إلى المظاهرات كوسيلة وحيدة، لا يرون غيرها لإسماع صوتهم.. إنهم يلجأون إلى هذا الخطاب الحر المفعم بالانفعال والمواجهة، في حين أن الاهتمام الواعي المبكر من جانب المندوبين، كان يكفي لإدارة حوار معتدل، معقول وبناء.

ونتيجة لذلك.. فالجميع يفعلونها : الكبار والمعوقون، والمنحدرون من أصل بورتوريكي، والكروات، والمحتجون على الحرب النووية، وجين فوندا والمزارعون، والأمهات، وعمال البناء، والعاطلون والمستأجرون، إلى آخر قائمة لا تنتهي. وكلما تنافرت الأصوات.. فقدت المظاهرات فاعليتها في إثارة الرأي العام أو تحديد الاستجابة الرسمية. أما بالنسبة لمشاهد التلفزيون.. فإنها تصبح مجرد عرض خارجي، يتابعه بشغف أحياناً، ودون أن يعيره اهتمامه في أحيان أخرى، ثم ينساه في كل الأحوال.

وهناك أسباب عديدة وراء فشل التلفزيون المحلي في تغطية قضايا معينة، قبل أن يشعر المواطنون بحاجتهم إلى التظاهر، يرجع أولها إلى وزن المندوب الذي تستخدمه بعض المحطات الصغيرة والكبيرة؛ حيث يتفوق المظهر والقدرة الدرامية وسحر الشخصية على الالتزام بحاجات المجتمع المحلي وفهمها. ولا بد أن ينعكس هذا التركيز المظهرى على المنتج الإخباري في النهاية، وتصبح مسألة وجود مصادر للمندوب في هذا المجتمع، وأن يكون موضع ثقتها، واحترامه أمراً ثانوياً بالقياس إلى شخصيته على الهواء وكيف يبدو. وكثيراً

مايستعان بمندوبين من خارج المنطقة، يفتقرون إلى المعرفة بها والرؤية العميقة فيها، والاتصالات الضرورية التي تجعل منهم صحفيين محليين جديرين.

وحتى عندما يتاح للمندوب الوقت الكافي لتكوين الاهتمام المطلوب والاتصالات مع المجموعات المحلية.. فمن المحتمل ألا يبقى طويلاً في محطة محلية معينة، فهناك عملية تنقلات مستمرة للعاملين في أخبار التلفزيون المحلي. فلا يكاد المندوبون يعرفون اسم العمدة المحلي أو الحركة في شوارع المدينة.. حتى ينتقلون إلى محطة أخرى، في مدينة أخرى سعياً وراء أجر أعلى، وجمهور أوسع من المشاهدين. وبسبب هذا القصور في الاستمرارية.. فإن قليلاً من مندوبي التلفزيون هم الذين يبقون في محطة محلية وقتاً كافياً لبناء الإحساس بالاهتمام والالتزام والثقة، التي تحتاجها المجتمعات المحلية وتريدها.

وحتى لو كان المندوب شغوفاً بإقامة هذه الاتصالات.. فإنه في معظم المحطات في دوامة من الانشغال، قلما تسمح له بذلك. فغالباً ما يطلب من المندوب المحلي أن يغطي ما بين ثلاثة إلى أربعة موضوعات كل يوم، ولذا.. فإنه لا ينتظر منه سوى مس الأمور سطحياً. ولما كانت التغطية المثلى ليست رد فعل للأحداث، وإنما استباق للتطورات.. فإن فرصة مندوب التلفزيون - الذي لا يجد سوى وقت ضئيل للتفكير في الموضوعات واستظهارها - محدودة في ممارسة مثل هذه الصحافة ذات المستوى الأعلى.

ومن الواضح أن العالم الحقيقي للتلفزيون المحلي، على نحو ما هو الآن، ليس مثالياً أو كاملاً، ويجب على المندوب أن يستفيد - إلى أقصى حد - من الفرص المتاحة لمزاولة الصحافة الذكية.

إنه يوم جديد آخر في محطاتك، ومن الطبيعي أنك مشغول، ويعهد إليك بتكليف لتغطية مظاهرة. إن خطوتك الأولى أن تتصل تليفونياً بالمنظمين، قبل أن تقوم بالمظاهرة حتى تعرف الغرض منها. وقد تريد أيضاً أن تتحدث إلى من يمثل وجهات النظر المضادة حتى تلم بالصورة وتعرف علام يراهن كل طرف. ومن المفيد أن تندجز سلفاً بعض الأعمال الخاصة بتغطية المظاهرة؛ حتى تستطيع أن تحصل - في هدوء - على خلفياتها وبواعثها، بعيداً عما سحدثه بعد قليل من صخب وضجيج. وستكون طبيعة المعلومات التي تحصل عليها مختلفة؛

إذ تكون أكثر فكراً وأكثر وعياً، عندما تحصل عليها في لقاء هاتفي أو في جو هادئ. ففي وسط المظاهرة.. يبالغ المنظمون والمشاركون في مطالبهم، ويمكن أن يتحالف وجود الكاميرا مع إثارة المناسبة، في إعادة تشكيل طبيعة مطالب الجماعة المتظاهرة، ولاشك أنه من المهم تقييم أهداف منظمي المظاهرة، وتقدير جدية قصدهم وسلامته.

وعندما تعرف ما يريده المتظاهرون، يجب أن تسأل نفسك: هل هذه المطالب قابلة للتحقيق. وعلى سبيل المثال.. فليس من قبيل المفاجأة أو مما يدهش أن يتظاهر المواطنون للإبقاء على أجور النقل بالأتوبيس وامترو الأنفاق منخفضة. ولكن نظام النقل يعاني من عجز خطير في ميزانيته لأسباب عديدة. وإذا أعرض الركاب عن دفع تكاليف تشغيل وسائل النقل، فمن الذي سيفعل ذلك؟ وما الذي يقترحه المتظاهرون بالضبط؟

وإذا كان المطلوب في حقيقته يمثل سذاجة مفرطة وبعداً عن الواقعية، وغير قابل للتحقيق على الإطلاق فالمندوب مدين للمشاهد أن يقدم له أكثر من مجرد عرض غضب المتظاهرين، وإحساسهم بالإحباط. وتسجيل الغضب والإحباط دون تحليل. وعدم وضع الأمر في نصابه إنما يكون إضافة لمزيد من الحرارة دون إلقاء أي ضوء، وهنا لايزيد المندوب عن أنه يقول: «انظر لقد جنّ القوم، ولكنه لا يقدم أي إيضاح لكيفية إزالة أسباب هذه الشكاوى والتظلمات.

ومما لاشك فيه أن الخبر الذي يعرض المظاهرة، ويحكي ظاهر أمرها فحسب، إنما يمثل خدمة سيئة لحق الجمهور في أن يعلم، ويزيد من الانفعال وعدم التعقل، بدلاً من المعرفة التي تفيد في الحوار. وإذا أردت أن تتصرف من منطلق الإحساس بالمسؤولية.. فلا بد أن تحيط المشاهد علماً بالعناصر التي يمكن أن تؤدي إلى حل المشكلة المطروحة، والخيارات الممكنة، ومن أين يمكن أن تأتي الأموال اللازمة، وهل هي متوفرة أم لا؟ ولن يؤدي ذلك إلى إسكات أصوات المتظاهرين أو تجاهلها، هؤلاء الذين يشعرون بأنهم لا حول لهم ولا قوة، وأنهم مغلوبون على أمرهم، ولكنه يضيف إلى صرختهم إيضاحاً عقلانياً مفيداً.

وهناك طريقتان على الأقل للإقبال على مهمة تغطية مظاهرة، الأولى: هو النظر إلى الموضوع بعمق يتجاوز حدود اللحظة، ويؤدي إلى التحقيق في القضايا المثارة، والثاني: هو

النظر إلى المظاهرة على أنها عرض مسرحى فى الطريق، يمثل مشهداً عابراً ينقطع بانتهاء لحظته، دون أن يحقق أى هدف .. وحتى إذا كان الأمر كذلك؛ فأنت فى حاجة إلى أن تطبق مبادئ التحليل والتقييم الواعى، إذا أردت أن تصون نفسك من أن تجرّفك إغراءات المشهد، الذى تقوده أوركسترا من قادة المظاهرة.

ومن المعلومات المهمة معرفة عدد المشتركين فى المظاهرة. وفى بعض الأحيان تكون المظاهرة صغيرة؛ بحيث تستطيع أن تحصى عدد المشاركين فيها، ولكن المعتاد هو الاعتماد على الأرقام التى تقدمها الشرطة. وإحصاءات الشرطة يجب أن تندسب إليها، وألا تقبلها كحقيقة مقدسة. ومن المعروف أن المسئولين يبالغون أو ينتقصون من عدد المشاركين على حسب طبيعة الاحتجاج؛ فإذا كان المتظاهرون يشكلون جماعة لا يحبها المسئولون جاءت الأرقام المقدمة أقل من الواقع؛ لإعطاء الانطباع بأن المظاهرة ليست خطيرة. ومن ناحية أخرى.. فإن قادة المظاهرة يمكن أن يقدموا أرقاماً متضخمة؛ حتى يبدو الاحتجاج أكثر أهمية. فإذا أقبلت على المناسبة وأنت تعلم كيف يمكن التلاعب فى الأرقام.. استطعت أن تقول إن العدد يتردد ما بين كذا وكذا، وتركت للمشاهد أن يستنتج بنفسه.

وهناك سؤال آخر يحتاج إلى إجابة : ما طبيعة الجمهور؟ كم من المشتركين متظاهر حقيقى، وكم منهم جذبته المشهد وما فيه من إثارة؟ إن العينة العشوائية يمكن أن تفيدك، فالأرقام الثابتة مستحيلة تقريباً. ومن الأساليب المفيدة إجراء مقابلات مع المشاركين فى المظاهرة، ولكن دون كاميرا؛ إذ يقلل ذلك من احتمال احتيال المواطن العادى الذى قد يخترع قصصاً خيالية؛ ليضمن ظهوره على الشاشة.

ولابد أن يفرق المندوب بين هؤلاء الذين يرغبون فى أن يقولوا أى شئ أمام الكاميرا، ومن لديهم بعض المعلومات المهمة الحقيقية. وقد يقبل بعض المندوبين ما يردده المتظاهر أمام الكاميرا من تعليقات دون انتقاد أو اعتراض، لأنها فى الواقع تخدم خطته فى تحقيق العنصر الدرامى فى الخبر وعناصر الإبهار والإثارة. وتكون النتيجة لى الحقيقة وتشويهها، وتتحول عملية جمع الأخبار إلى مؤامرة لخلق الدراما، أكثر منها انعكاساً للحقائق الصحفية الواعية.

وتضم المظاهرة جمهوراً له حياته وأهدافه وهويته التي تختلف عن أفراد آخرين، قد يشعرون أو لا يشعرون بالانتماء لهذه الحركة. تعرف بسرعة على من له حق التحدث باسم هذا الجمهور، وليس من يتحدث باسمه فقط. وفي بعض الأحيان.. يكون التجمع هلامياً غير متبلور، يضم أناساً أصابهم أشياء كثيرة بالضيق الشديد: ظلم الحياة، الإحباط الشخصي، التضخم، البطالة، ولعل المنظمين قد حشدوا - في مهارة - هؤلاء الأفراد الذين لا يعطيهم المصعب المباشر، وذلك لإطلاق البخار المكتوم. وقصارى القول إن المظاهرة - في بعض الأحيان - قد لا تكون في حقيقتها كما يبدو منها، وقد لا تعدو أن تكون مجرد تنفيس عن انفعالات مكبوتة.

وستجد المندوب الصليح الذي يسير الأغوار حساساً لهذه الفروق، واضحاً في تغطيته، مميزاً بين طبيعة الاحتجاج وهدفه المعلن. وبهذا يكشف التعقيد الإنساني في الواقعة إلى جانب الأبعاد السياسية والاجتماعية.

ومن بين الأسئلة التي يجب أن توجهها إلى أي متظاهر: لماذا أنت هنا؟ ما الذي يجري في حياتك، ويدفعك للانضمام إلى الاحتجاج؟ لماذا شعرت أنه ليس ثمة طريق آخر لينصت إليك الآخرون بإنصاف؟ ما علاقتك بمنظمى المظاهرة؟ وكيف علمت بأمرها؟

أما بالنسبة لقادة المظاهرة.. فاسألهم: ما الذي تحاولون الحصول عليه؟ ولماذا اخترتم هذه الطريقة لإبلاغ رسالتكم؟ والأهم من هذا كله: ما الإجابة التي تنتظرونها بالضبط؟

ولتعلم دائماً أن الصياح طلباً للعدالة أسهل بكثير من تحديدها أو تحقيقها. وتحتاج التغطية إلى الانتقال من الأثر العاطفي القوي للمتظاهرين في مجتمع ديمقراطي، إلى عملية التصارع الأليمة مع القضايا والمسببات. ولقد قالها القديس بولس للمسيحيين الأول إنه حتى مملكة الرب قوامها القوة لا القول. وإذا كانت المظاهرة تريد أن تزاوّل منطق القوة، فعلى المندوب أن يعرف لماذا؟ وببدا من؟ وما الكيفية؟

أسأل.. هل الهدف الذي اختاره المتظاهرون ملائم، هل يلومون بلدية المدينة عندما تكون هيئة الاحتياطي الفيدرالي، هي التي تبقى أسعار الفائدة عالية؟ وهل يهاجمون وكالة حماية البيئة عندما يكون الكونجرس، هو الذي أصدر قوانين مكافحة التلوث؟ وهل يرفعون لافتات الاحتجاج ضد البيت الأبيض، عندما ترفع الدول العربية أسعار البترول؟ وقد يكون من

المستحيل على المواطن العادي الذي يعيش في مجتمع متشابك يعتمد بعضه على بعض - في ظل مراكز قوة محيرة - أن يكون على يقين من الهدف المناسب لاحتجاجه، إلا أنه لا بد من بذل بعض الوقت والجهد لاستجلاء هذا الهدف.

وتصبح الاحتجاجات عملاً رمزياً ومحاولة لجذب انتباه السلطة، ما لم يكن لها هدف محدد. وإذا رأيت أن هذا هو مغزى الاحتجاج فعبّر عنه، وماتراه أمامك قد تكون فيه احتمالات كامنة أكبر وأبعد مدى في الأهمية، من مجرد احتجاج معزول محدد الهدف؛ فقد تكون شاهداً على توتر متشعب الجذور، ينبئ عن انقسامات أعمق وأشد صلابة، تحتاج إلى استجابة جذرية سياسياً واجتماعياً. إن انتفاضة الحقوق المدنية والمظاهرات المعارضة للحرب في الستينات، كان يمكن أن تؤدي إلى ثورات سياسية واجتماعية أوسع نطاقاً، لولا أن وسائل الإعلام تناولتها على نحو ملائم، ولولا أن النظام السياسي اذعن لمطالبها. أسأل نفسك: هل هناك ضغوط تتنامى تحت السطح، وهل المظاهرة التي أمامك هي ما يبدو من جبل الثلج؟

ولا بد أن تتخذ قراراتك في كيفية إنجاز التغطية بالصورة، حتى وأنت تتأمل طبيعة الحدث ومغزاه. وحتى تغطي أبعاد المشهد.. قد يضطر المصور أن يصعد إلى تل أو سطح قريب لإلتقاط صورة شاملة للموقف. ومثل هذه اللقطة من أعلى، يمكن أن تكشف عن اتجاه المسيرة، وإلى أي مدى ملأ المحتجون الشوارع والطرقات. وعلى أرض ميدان المظاهرة.. يجب أن يلتقط المصور صور اللقعات المرفوعة، والملابس غير العادية التي يرتديها بعض المتظاهرين والأغاني والأناشيد، أو مشاهد الصمت التي يمكن أن تكشف عن طبيعة المظاهرة ومحورها. ومن الصور المهمة: التلوع أو التجانس في وجوه الأفراد، وخلاصات الكلمات التي تلقى، وردود فعلها على وجوه المستمعين. ومن المفيد الحصول على ردود فعل وتعليقات المتفرجين، إن وجدت؛ لأنها تعبر عن مدى التفاعل بين المتظاهرين والمتفرجين، وتكشف بعض التصرفات الرمزية. مثل تحطيم الصور - بسرعة ويقوة عن نية المتظاهرين، فمن منا يستطيع أن ينسى صور الإيرانيين، وهم يحرقون دمي تمثل الرئيس كارتر، والمحاربين القدماء وهم يلقون أنواطهم في حرب فيتنام في حديقة مبنى الكونغرس. ومن الواضح أنه يجب عليك - حين تغطي مظاهرة - أن تنتبه إلى الطبيعة العاطفية والرمزية للحدث، وما ينطوي عليه من أفعال.

وعندما تأخذ المظاهرة التي بدأت سلمية في التحول إلى العنف والاضطراب، فستجد نفسك في مواجهة صعوبات خاصة تتصل مباشرة بطبيعة وسيلتك؛ فقد ذكرت اللجنة الاستشارية القومية للاضطرابات المدنية (لجنة كيرنز) (The Kerner Commission) في تقرير لها عام ١٩٦٨، أنه - خلال أحداث الشغب في تلك الفترة - كان واضحاً أن معظم مندوبي التليفزيون والمصورين يدركون قوة الكاميرا في إثارة الإضطراب، وقد تحلوا بالانضباط، ولكن قلة منهم حرصوا المتظاهرين، ودبروا عمليات الحجارة، وشجعوا اللجوء إلى العنف؛ حتى حصلوا على صور مثيرة حافلة بالحركة. ومنذ ذلك الوقت.. أصدرت المؤسسات الإخبارية التي تقدر المسؤولية توجيهاتها وتحذيراتها إلى رجالها، عندما يخرجون لتغطية مثل هذه الأحداث؛ في محاولة منها لمنع مثل هذه التصرفات غير الأخلاقية، التي تسيء إلى شرف المهنة.

وعندما تبدأ المظاهرة في هدوء، ثم تنفجر فيها أعمال العنف، كيف تكون تغطيتها؟ هب أن معظم المتظاهرين كانوا مسالمين، وأن قلة منهم قد اختارت أن تلجأ إلى التخريب وانتهاك القانون.. فهل تسمح في تغطيتك للأغلبية المسالمة، أن تبتلعها تصرفات القلة التي تستعرض عضلاتها؟ إن أحداث العنف يمكن أن تطفئ على الحقيقة لو اخترت أن تركز عليها، بينما الحقيقة أن الأغلبية جاءت تعلن رسالتها سلمياً. انتبه فقط إلى الطبيعة الحقيقية ومزاج الجمهور وغضبه، وغرضه وما ينتويه، ولا تسمح لقلة من مثيرى الشغب والفتنة أن يرسموا معالم الخبر. إنك تستطيع أن تحكى الخبر بشكل واع هادئ، يعبر عن الأغلبية المسالمة، ثم تشير باختصار إلى الاضطراب الذي حدث، حتى يأخذ حجمه الطبيعي في درجة الأهمية، إذا تبينت فعلاً أنه بسيط إذا قورن بما حدث. ومع ذلك.. فإذا نشبت الاضطرابات المدنية الشاملة، فلا سبيل إلى احتواء هذه الحقيقة، وليس لك أن تحاول؛ فمن الواضح أن من حق الجمهور أن يعرف إلى أى مدى كانت الاضطرابات وأعمال العنف خطيرة، وكيف تتصرف الشرطة والحرس الوطنى فى إخمادها، والحاجة تدعو للإشارة إلى الأسباب، ولكنها فى اليوم الأول، يحتمل أن تحتل المرتبة الثانية، إذ تسأثر بالأولوية فيه ملامح الحدث وصور الاضطرابات وتفصيلاتها.

كن على بينة بمدى صعوبة الحصول على معلومات يعدت بها، في ظروف من هذا القبيل؛ حيث تنطلق الشائعات حتى من الجهات الرسمية. وما يحتمل أن تحصل عليه هو أجزاء يسيرة من الصورة الكلية، تسرب بعضها عبر مخاوف وظنون المسؤولين عن تنفيذ القانون والمواطنين. وحتى تجد طريقك في هذه الأحرار المتشابكة.. تقدم بحذر، وليكن خيارك في التغطية متحفظاً، ويطى هذا ألا تنقل إلا ما هو مؤكد، مع إيضاح مصادر المعلومات وتقييمها والتحفظ، إذا لزم الأمر.

ولتعلم أنه من خلال حقيقة تغطيتك لأعمال العنف، قد تكون باعثاً عليه. إنك تصبح جزءاً من الحدث الذي تغطيه، لأن ما تقوله يشكل ردود الفعل لدى المشاهدين. وماذا عن حق الجمهور في المعرفة إذا كانت هذه المعرفة تحول الموقف إلى أسوأ؟ هل من الملائم أن يحجب المندوب معلومات بحجة أثر الحدث؟ يعتقد المندوب - في الظروف العادية - أنه يجب أن ينقل ما يعرف فلا يدخر شيئاً، ولتتطير الشطايا لتقع حيث يكون. ولكن هل يناسب ذلك أحداث الشعب؟ أيناسب الثورة؟ أيناسب الحرب؟!

إنها أسئلة مثيرة للأسى بالنسبة لمندوبي الصحافة المقروءة، وهي أدهى وأمر بالنسبة لمندوبي التلفزيون؛ بسبب قوته في إثارة العواطف وإشعال اللهب .

وثمة أسئلة أخرى تستدعي النظر.. هب أن العنف تعبير له ما يبرره عن غضب المقهورين.. هب أن القوى الثورية، مهما كان عنفها، لها سند من التاريخ والحق.. ما دور المندوب في هذه الظروف؟ هل يضعه تأكيد على دور الحكومة في احتواء الاضطرابات إلى جانبها مؤيداً للوضع القائم؟ قد يعرض المندوب نفسه للاتهام بمحاباة السلطة، لو ركز على القانون والنظام، وكذلك لو ركز على المحتجين؛ إذ سيبدو متعاطفاً مع وجهة نظرهم. وقمة الصعوبة هنا هو الالتزام بالموضوعية.

وقد سلح المتظاهرون السابقون للحقوق المدنية أنفسهم بالسلاح المعنوي المؤثر عندما تجلبوا العنف. وأصبحت صور التلفزيون للزنج ورجال الشرطة يوسعونهم ضرباً بالهراوات والجنائز وخراطيم الإطفاء، أصبحت حجة بليغة على المظالم، التي تكدست فوق رؤوس الزنج في الولايات المتحدة. وسرعان ما أعقب ذلك تشريع رئيسي وثورة في المواقف

الإجتماعية لمصلحة الزوج. وحيثما يتجه المحتجون إلى العنف.. تقل فرصتهم في إثارة مثل هذا التعاطف، أو إنجاز مثل هذه النتائج المذهلة، طالما أن مشاهد التلفزيون يشعر بنفسه أن التغيير يمكن أن يحدث بلا عنف وبالوسائل القانونية. ولما كان العنف على الشاشة، قد يجد تعاطفاً من المقهورين والباطسين والغاضبين بين مشاهدي التلفزيون.. فإن هذا يعنى أن صور العنف على الشاشة قد تحفز مزيداً من المواطنين إلى المشاركة فيها.

وقد تشعر بالميل إلى أن تدع الحدث يحكى نفسه، وذلك لأن المظاهرة تأسر بالصورة والانفعال العاطفى. وقد تغريك الطبيعة المشحونة للحدث أن تترك الصور والمقابلات مع المشاركين تحكى ما يحدث.. وقد يتخذ هذا القرار فى وقت، يرى فيه المشاهد أن جزءاً من عالمه يتمزق، وهنا يكون شديد التعطش إلى الإيضاح. ولهذا السبب وغيره.. لا تتردد فى الإيضاح والتعليل، كلما كان ذلك ممكناً وسديداً.

إن العبء ثقيل، خصوصاً عندما ينتظرونك أن تبث على الهواء من موقع الحدث. كيف تغطى بوعى ما وصفته الملكة اليزابيث الأولى ذات مرة بقولها : هؤلاء الذين لا يكبحهم منطق، كيف تفسر انطلاق الأعمال غير العقلانية من الشكاوى الحقيقية المعقولة؟ كيف تفسر انحراف أصحاب الشكاوى، الذين يلتمسون الإنصاف والعدل، إلى أعمال تفرض الظلم على ضحايا آخرين (على سبيل المثال، أصحاب المحال الذين يبدو أنهم يتحملون دائماً أسوأ نتائج عمليات الإحراق، وثورة الغضب فى المدن الأمريكية)... إنه تكليف شاق.